

اللسانيات التداولية والترجمة

مقاربة لإشكالية المعنى في الترجمة من وجهة تداولية

د. حبيب مونسى

جامعة سيدي بلعباس

1- تقديم:

لقد استهدت نظريات الترجمة باللسانيات التماسا منها إلى سمة العلمية فيها، وابتغاء إضفاء مسحة من اليقين في منجزاتها إذا هي ركنت إلى علم لغوي يتشدد كثيرا في ضبط أدواته ومصطلحاته. بيد أن اللسانيات على اختلاف مشاربها ومدارسها، عالجت الظاهرة اللغوية علاجا خاصا، ارتكبت فيه جملة من التجاوزات أحالت الدرس اللساني إلى ضرب من المثال البعيد كل البعد عن الجاري في الاستعمال، والشائع بين الناس. وأمام إلحاح نظريات جديدة تبحث في التواصل والمقاصد، وتحليل الملفوظات، والخطاب، والترجمة، كان على اللسانيات أن تدير دفة توجهها المثالي إلى المعاينة السياقية، وأن تخوض غمار الاستعمال لتجدد صلتها باللغة وهي فاعلة في صلب الواقع، فكانت التداولية ...

2- إقصاء الأطراف المتحاذية:

قامت اللسانيات السوسيرية على فصل قوي بين اللغة والكلام، واستمرت في مباحثها خدمة لذلك الفصل، وتأكيدا لواقع اللغوي. وكل المدارس اللسانية التي

حبيب مونسى

تلست (دروس اللسانيات العامة) أخذت بهذا التقسيم أخذا قويا. بيد أنها لم تقرأ في قول دي سوسير إقصاء للمتكلم والكلام، وإعطاء الأولوية للغة. فهو يقول:

- « En séparant la langue de la parole, on sépare du même coup:

1-ce qui est social de ce qui est individuel.

2-ce qui est essentiel de ce qui est accessoire et plus ou moins accidentel. » ⁽¹⁾

وكأننا أمام عملية اختزال تطل جهازا كثير التعقيد، فنتخلص من الجانب المتحرك المتحول فيه، لتحفظ لنفسها بالثابت القار الذي يمكن درسه وتفحصه. وربما كان هذا الاختزال، وذلك البحث عن الثابت من مطالب العلم وطرائقه في الملاحظة والتدقيق. بينما اللغة في تقاطعها مع الاجتماعي، تستبعد فكرة الثبات والاستقرار، وهي تتقلب على الألسن، وتتابع الحراك الاجتماعي في اضطرابه وقلقلته. لذلك كان الهم وراء إصابة البنية القارة التي يشتغل بها الجهاز اللغوي المثالي، هو الذي أوحى إلى دي سوسير اعتبار الكلام من قبيل الزائد والعرضي الذي لا ضرورة له في البحث العلمي. وهو إقصاء صريح لطرف فاعل في خلق اللغة ذاتها. ويتدرج به الإقصاء إلى غاية نفي دور المتكلم في خلق اللغة، وتجديدها، والتأثير فيها. ويجعلنا نعتقد أن جهازها وجد هكذا كاملا مكتملا، فهو يقول:

-« la langue est la partie sociale du langage, extérieur à l'individu, qui ne peut à lui seul ni la créer ni la modifier » ⁽²⁾

اللسانيات التداولية والترجمة

والغريب في هذا الزعم هو التأكيد على الهوة الفاصلة بين الذات ولغتها من جهة، وبينها وبين القدرة على التأثير والتأثير المتبادل بينهما. فمهما تكلم الفرد، أو أبدع، أو اجتهد.. فإنه لن يخلق اللغة، ولن يغير فيها. بل يمكننا أن نلمح في قول دي سوسير فجوة تسكنها الحيرة. إنها في قوله (à lui seul) وكأنه ينتظر التغيير والتأثير من طرف جماعي. بيد أن الجماعة في أول أمرها أفراد وحسب. تلك الفجوة التي يعود إليها مرة أخرى قائلا:

- « il n'y a donc rien de collectif dans la parole ; les manifestations en sont individuelles et momentanées » ⁽³⁾

وحين يجزم دي سوسير أن لا شيء جماعيا في الكلام، فإنه يستبعد بذلك شبكة التواصل وما يعتورها من تقاطعات تمتد بعيدا في الشبكة الاجتماعية، رافدة كافة المشاعر والأحاسيس التي تصاحب الكلام، وتسبغ عليه مسحة الانفعال وإرادة التأثير والتوصيل، وإحداث الفعل في الآخر. ثم إن وسم ذلك كله بالوقتي والعرضي تقليل من شأن الحاصل في التبليغ، سواء كان التبليغ صوتيا أو رمزيا كتابيا. إلا أننا ونحن نتابع الباحث في حرصه على إبقاء الجهاز اللغوي بعيدا عن الذاتية والاستعمال، نجد ترددا بيّنا في الموقف، يسجله "ROLAND ELUARD" في كتابه "La pragmatique linguistique" قائلا:

«le cours revient souvent sur le fait que la langue n'est perçue que par la parole, n'est modifiée que par la parole.» ⁽⁴⁾

حبيب مونسى

وكان التعارض القائم بين المطلب العلمي وبين الحقيقة الواقعية، يجعل الدارس يعود مرة أخرى إلى تأكيد عامل الاستعمال ودوره في إيجاد اللغة. لذلك نجده يقول:

« il y a donc interdépendance de la langue et de la parole; celle-là est à la fois l'instrument et le produit de celle-ci. »⁽⁵⁾

غير أن هذا التأكيد على التأثير المتبادل بين اللغة الكلام سريعاً ما يتلاشى أمام الحرص العلمي الذي يسعى إلى تثبيت الجهاز اللغوي تثبيتاً يعتمد إقصاء المستعمل أياً كانت طبيعته وأداته ومقاصده. وهو المنهج الذي التزمته اللسانيات فيما بعد سيرا وراء قوله:

- « non seulement la science de la langue peut se passer des autres éléments du langage, mais elle n'est possible que si ces autres éléments n'y sont pas mêlés. »⁽⁶⁾

وانتهى هذا الإصرار إلى إقصاءات أخرى تجاوزت الفردي الذاتي إلى السياق كله.

3- إقصاء السياق العادي:

يذهب "ROLAND ELUARD" إلى تعريف خاص للسياق يحوصله في

ثلاثة نقاط:

« Le contexte ordinaire 000mondain comprend en gros trois ensembles de faits:

1-le contexte *littéral* ou *cotexte*: l'environnement verbal ou écrit de l'énoncé considéré.

اللسانيات التداولية والترجمة

2-le contexte *situationnel*: tout ce qui entoure les sujets parlants, le moment et le lieu comme les raisons qu'ils ont de communiquer et de communiquer ainsi.

3-le contexte *mondain*: tout ce qu'englobe l'horizon de la situation; le fait que ce soit des hommes qui se parlent et s'écrivent.»⁽⁷⁾

إنه السياق الذي يتدرج من النص الذي تشكل أجواؤه الداخلية والخارجية: من لغة، وأسلوب، ومقاصد تتصل بالتعبير وإرادة التبليغ، وأحوال التلفظ ومقاماته الخاصة، إلى الموقف الذي يكتنف العملية في جملتها، فيضم في ظرفه المتخاطبين وما يتوشحون به من مشاعر متبادلة تتلبسها الأسباب الداعية إلى التحاور، إلى السياق الحياتي الذي يشمل الكل ويطوي المواقف التي تتصل بحقيقة الإنسان في وتواصله. وهو السياق الذي لا يهمل في حده مجالا من المجالات التي يطالها فعل الكلام عادة. فمن السياق النصي الخاص بالعمل الإبداعي إلى السياق الاجتماعي الذي يشمل العمليات التواصلية، تبدو عملية الإقصاء إخلالا صريحا بأطراف المشكلة اللغوية. لذلك يشير الباحث إلى بعض ملاحظات دي سوسير التي نقلها " J.STAROBINSKI" في بحث له. يقول " R. ELUERD ":

«On ne sera donc pas étonné de trouver parmi les notes de F.saussure une question qui pose exactement le problème du passage des analyses non pragmatiques aux analyses pragmatiques.»⁽⁸⁾

فيعدها نقطة التحول من اللسانيات غير التداولية إلى اللسانيات التداولية، استنادا إلى قول دي سوسير:

« mais qu'est ce qui sépare le discours de la langue, ou qu'est ce qui à un certain moment, permet de dire que la langue entre en action comme discours? »⁽⁹⁾

4- لسانيات التلفظ:

لقد كانت الخطوة الحاسمة للتحويل نحو الاستعمال قائمة في صلب التوجه الجديد للسانيات التلفظ التي أخذت على عاتقها -دون أن تتخلى عن الفصل بين اللغة والكلام- فحص أحوال التلفظ والملفوظ، والالتفات إلى الأطراف التي تتبادل الكلام: إنتاجا وتلقيا. وما يهمنا من أمرها في هذا العرض هو فهمها للتلفظ والملفوظ، ومقامهما من اللغة جهازا قارا ثابتا. يقول "BENVENISTE" " عن اللغة والتلفظ:

«avant l'énonciation, la langue n'est que la possibilité de la langue»⁽¹⁰⁾

وهو تحويل للجهاز الذي أصر عليه دي سوسير ورأى فيه الوجود العيني، يحوله "BENVENISTE" " إلى مجرد إمكانية لا تتحقق إلا بفعل الكلام وحده. وهو التحويل الخطير من اللسانيات الكلاسيكية إلى فحص جديد لإمكانات الإيجاد الاستعمالي عبر التلفظ. وهو ما يعتبره "R. ELUARD" " تحولا فعليا، حين يقول:

« nous sommes passés d'une linguistique qui excluait le sujet parlant ordinaire, à une linguistique ou sa place est définie comme centrale »⁽¹¹⁾

اللسانيات التداولية والترجمة

ومنه أصبح التلفظ محط اهتمام الدرس اللساني، لأنه يجد فيه بصمة الذات في تعاملها مع اللغة وإخراجها من حيز القوة إلى حيز الفعل. وهي الإشارة التي يركز عليها "BENVENISTE" قائلا:

«la relation du locuteur à la langue détermine les caractères linguistiques de l'énonciation»⁽¹²⁾

كما نجد في تعليق "R. ELUARD" التفاتا إلى الميكانيزمات المحركة لفعل التلفظ، وما يلحقه من أفعال. لأننا إزاء الكلام لا تستقيم لنا مناهج الرؤية التي كانت سائدة في النظر إلى اللغة جهازا مستقلا وحسب. ذلك حين يقول:

« nous sommes passés d'une linguistique dont les analyses ne scrutaient que la langue, à une linguistique dont les analyses se placent résolument au cœur même de l'énonciation pour interroger cette mise en acte de la langue. »⁽¹³⁾

كل ذلك استنادا إلى النظرة الجديدة التي يقدمها "BENVENISTE" في تعامله مع الملفوظ، آخذا بعين الاعتبار فعل التلفظ في حد ذاته أولا، ثم المقام الذي يصدر فيه، والموقف الذي يمليه، والأدوات التي تحققه:

«dans l'énonciation, nous considérerons successivement l'acte même, les situation ou il se réalise, les instruments de l'accomplissement.»⁽¹⁴⁾

ولا يمكن إدراك مرامي هذا القول، وتلمس أبعاده الفعلية إلا من خلال نظرة أخرى تتصل بعمليات الفهم المنوطة بالملفوظ. ذلك أننا إذا أردنا حقيقة معرفة فحوى الخطاب، والتأكد من مقاصده، فإن المعرفة اللغوية التي يقدمها لنا الجهاز

حبيب مونسي

اللغوي غير كافية البتة في اختراق المقاصد المترابكة في القول. لذلك يرى " R. ELUERD " أنه يتوجب علينا لفهم الملفوظ إحالته على سياقاته الخاصة التي حددها سابقا. فهو يقول:

« tout énoncé... pour être compris, doit être rapporté aux circonstances de son énonciation . le propos le plus apparemment objectif comporte des données subjectives puisqu'il n'est plus question de faire l'impasse sur la présence du locuteur en son énonciation. »⁽¹⁵⁾

فالتركيز جار على تلمس الذاتي في الموضوعي. وكأن اشتغال اللغة في الاستعمال لا يتوقف كثيرا على الموضوعي الذي يأخذ بالقواعدية والنظام، بقدر ما يجنح إلى الكيفيات التي يسلكها المتحدث قصد تبليغ مراده في ثوب يراه أنسب للغاية التي يتوخاها.

لقد حققت هذه الخطوة الجريئة نقلة أخرى نحو توجه جديد في الدرس اللغوي. إنه يتجلى صريحا في مباحث أفعال الكلام. ذلك النشاط الذي يرمي إلى فهم العملية الكلامية في مقاماتها المختلفة، وما يتفصد عنها من مقاصد. لقد أعاد هذا النشاط للمتحدث/ الكاتب مكانته في نسق العملية التواصلية، وحد من غلواء القراءة التي كانت تشتت بفعل التأويل الحر بعيدا عن المراد المرسوم في الخطاب. وصحيح أن التأويل قد يفتح في الكلام نوافذ أخرى يمكن للدرس اللغوي أخذها في حسبانها، بيد أنها تظل مرهونة بشروط الكلام وظروف إنتاجه.

5-أفعال الكلام:

لا نريد الخوض كثيرا في مجاهل هذا النشاط، وما يهمنا منه في هذه العجالة هو ما ذهب إليه "P.CHARAUDEAU" في كتابه " éléments de sémiolinguistique " حين راح يتحدث عن فعل الكلام وتقاطعاته والوظيفية قائلا:

«l'enjeu de l'acte de langage (aussi bien pour le sujet énonçant que pour le sujet interprétant) n'est donc pas à chercher dans sa configuration verbale, mais dans le jeux qui s'établit, pour un sujet déterminé, entre cette configuration et son sens implicite, qui dépend de la relation des protagonistes entre eux et la relation de ceux-ci aux circonstances de parole qui les réunissent.»⁽¹⁶⁾

مادام يعتقد أن الكلام يقوم على وجهين: وجه بَيِّن " explicite " يرفعه الكلام إلى السمع أو القراءة، ووجه ضمني " implicite " يرفعه المقام حين ننبين الوجهة التي يسلكها الكلام في ابتغاء المعنى المراد. وكأن كل كلام إنما يتأسس على هذه الثنائية الخطيرة التي تشيع اللبس والغموض في الكلام أول الأمر، حين نتجاهل السياقات التي ترفده. غير أنها تتجلى صريحة حالما نواجه القول بما يجبل به السياق من عطاءات تحدد المشاعر والأحاسيس والجو الذي يكتنف التواصل. وهي الخاصية التي يقول عنها " CHARAUDEAU ":

«cet acte à une double dimension: l'une que nous appellerons *explicite*, l'autre que nous appellerons *implicite*, absolument indissociables l'une de l'autre. »⁽¹⁷⁾

حبيب مونسي

بيد أنه ينتبه إلى نظام الحركة المتبادلة بين البين والضمني، فيرى فيها اتجاها مخالفا للعرف. فلا تكون الهيمنة التوجيه للبين، وإنما تكون للضمني الذي يتوخاه الخطاب في نهاية الأمر:

« loin de concevoir que le sens se constituerait d'abord de façon explicite dans une activité structurelle, puis serait ensuite porteur d'un implicite supplémentaire lors de son emploi, nous dirons que c'est le sens implicite qui commande le sens explicite pour constituer la signification d'une totalité discursive. »⁽¹⁸⁾

فالتوجيه الحقيقي للخطاب يكون للضمني الذي يسترشد عناصر المقام كلها من أجل توجيه المعنى إلى القصد الذي يرومه المتكلم/الكاتب. وهي الحقيقة التي تعضدها الأمثلة الكثيرة التي ساقها في كتابه، ويقبلها منطق الكلام العادي الذي يملأ أحاديث الناس في جدهم وهزلهم. والطريف الذي ينتهي إليه هو ضرب من الصياغة الرياضية للفكرة يرسمها على النحو التالي:

« puisque cet implicite est lié aux circonstances de production/interprétation, que nous appellerons désormais circonstances du discours (C de D), ceci nous amène à poser l'équation qui représente cette définition de l'acte de langage (A de L) :

$$A \text{ de } L = (\text{explicite} \times \text{implicite}) C \text{ de } D.$$

(le signe $\times$ qui relie explicite à implicite indique qu'il s'agit bien de combinaison et non d'une relation d'addition) »⁽¹⁹⁾

ثم ينقلب إلى المتلقي ليناقش معه مسألة التأويل وإنتاج المعنى فيقول:

« interpréter c'est donc, pour le sujet interprétant, faire des hypothèses sur le savoir du sujet énonçant et sur les points de vue de celui-ci par rapport au propos langagier et par rapport à lui-même, sujet destinataire (toute interprétation est un procès d'intention).» ⁽²⁰⁾

6- نظرية المعنى في التداولية:

يرى "دانيال كلود بيلونجيه" Danielle-Claude Bélanger " ⁽²¹⁾ أنه

يجب علينا تحصيل أربعة مفاهيم من أجل فهم دور فعل الكلام في إنتاج المعنى:

1-II faut distingué deux niveaux dans la signification d'un énoncé: la sémantique propre à chaque mot et le niveau plus globale qui comprend le vouloir-dire du destinataire. Le sens de la parole n'existe que dans l'interaction social.

إنه يتعين علينا حين نقرب من الملفوظ التمييز بين مستويين للدلالة: مستوى الدلالة الخاصة بكل كلمة، حين ننظر فيها شرطي الوضع والاستعمال. وكأننا نبحث فيها عن تاريخها الخاص تأثلياً، ومن ثم تقدم لنا الكلمات حقولها الدلالية التي تفتح أمامنا سبل القصد الكامن فيها. غير أن هذا المستوى لا يؤدي حق المعنى منفرداً. بل علينا أن نتجاوزه إلى تخمين القصد الذي أنشأ الكلام في جملته. وهو ضرب من التقمص يتيح لنا تعيين المقام، والاستبصار بمكوناته المادية والمعنوية، مادام معنى الكلام لا يتحقق أخيراً إلا في سياق يتيح التعالق والتواصل الاجتماعي. وسواء أكان الكلام قولاً أو خطأ، فإن البحث عن المعنى لن يهمل محاولة إعادة إنشاء الظرف الذي أنتج الكلام، بل وحتى الملابسات التي تؤثر فيه سلباً أو إيجاباً.

2. Deux éléments composent le sens de la parole : les connaissances antérieures accumulées par le sujet et la sémantique spécifique des mots et des phrases employés. يحدد الشرط الثاني عنصري المعنى في الكلام، ذلك أن المعرفة القبلية المكتسبة للغة واستعمالاتها المختلفة في المواقف المتعددة ينشئ عند المتلقي ضربا من القابلية التي تتيح له إدراك الدلالة الكامنة في فعل الكلام. وتأتي المعرفة الخاصة بدلالة الألفاظ لتزبد من قوة العنصر الأول وتدعمه. ويكون للمتلقي في هذا الشرط بعدين: بعد المعرفة المكتسبة، وبعد العلم الخاص بالدلالات. لأن المعنى لا يمكنه أن يكون تاما من غير هذا العلم الذي يفتح في اللغة أبعادها الثقافية والاجتماعية، ويمكن ظلها التاريخي من حشد مقاصدها أثناء عمليات التكلم.

3. Le contexte et les connaissances *a priori* permettent au sujet de prévoir le déroulement d'un discours.

ومن خواص المعرفة القبلية المكتسبة إمكانية مد المتلقي بفيض من التوقعات التي تسبق عمليات التلفظ، فيسهل على المتلقي إدراك نهايات الكلام. إنها أشبه شيء بقراءة النص السردي الذي تفصح أحداثه عن النتائج قبل وقوعها. فيكون التلقي متابعة لسلسلة من التوقعات التي نادرا ما تخيب. والذي يجعل هذا الشرط قائما، هو تلك المعرفة القبلية التي تفتح سجلات الكلام على الكيفيات المعتادة في أساليب التواصل.

4. Nous possédons une mémoire collective qui est constituée: d'un contexte conceptuel, de connaissances partagées que l'on suppose semblables à celles de nos interlocuteurs, et de la connaissance intrinsèque des règles de l'interaction sociale concernant l'acte de parole.

اللسانيات التداولية والترجمة

إن امتلاكنا لذاكرة جمعية مؤلفة من سياق مفاهيمي، ومن معارف مشتركة يفهمها المتحاورون، وما يتصل بها من قواعد تخص أفعال الكلام قمين بأن يجعل قضية المعنى قضية سهلة المكسب. ذلك أن الحقل المفاهيمي يتيح للمتلقي إدارة المعاني في أنساق خاصة يسمح بها الموقف الذي يحتضن الفعل الكلامي. ومن ثم فإن المحاور والمتلقي مضبوطان على وتيرة واحدة تتحدد فيها ومن خلالها المقاصد التي تحملها الكلمات ويشي بها السياق العام للمحاور.

بيد أن المعنى الذي نريد محاصرته في نطاق التداولية، والذي نروم الاستفادة منه في حقل تحليل الخطاب، يفرض علينا التوقف قليلا للتساؤل عن حقيقة المعنى ذاته ما هو؟ وكيف نميزه عن غيره؟ وكيف نقبض عليه في الكلام؟.

يضيف "دانيال كلود بيلونجي" Danielle-Claude Bélanger قائلا:

1. Le sens est le produit de la compréhension, c'est d'abord une perception, donc un objet psychologique.

فإذا تساءلنا عن طبيعة المعنى، كان لنا منه أولا أنه ناتج الفهم، ومن ثم فهو إدراك. وهو بذلك موضوع سيكولوجي. ولا يتسنى لنا فهم هذا الطرح إن لم ننظر في الإدراك على أنه مخامرة الكلام للذات واختلاطه بمكوناتها الخاصة. وكأن الكلام يدخل إلى مخبر الذات ليخالط فيها عناصرها النفسية: من مزاج، وإقتدار، وثقافة، وعواطف تجاه الباث، وردود أفعال تجاه القصد. وبذلك لن يكون المعنى إلا متشربا لهذه الأخلاط التي تعطيه صبغته النفسية أخيرا. وهذا التعيين يحدد البعد النفسي للمعنى، ويجعله أولا في كل تلقي، وعليه تبنى المواقف والردود. ولن يكون للقصد من فاعلية إلا من خلال هذا التكوين الذي نراعي فيه القبول أو الرفض. التصديق أو التكذيب.

2. Le sens est aussi un objet social que nous pouvons étudier.

حين يغدو المعنى موضوعا نفسيا، ويتم الإعلان عنه، يتحول المعنى إلى موضوع اجتماعي تلقت إليه الدراسات لاستكشاف حقيقته. وهي الدراسات التي تبحث فيه عن البواعث التي مكنت إدراكه على هذا الشكل دون غيره من الأشكال المختلفة الممكنة. ذلك أننا حين نقرأ نصا ونزعم أننا قد فمنا منه قصد محددا، فإن تعيين ذلك القصد وتحديد ذلك المعنى، يتراجع في الدرس إلى أسباب تتصل بالجانب الاجتماعي اتصالا قويا. فالتصديق والتكذيب، والقبول والرفض لا ينشأ استجابة لنزوة ذاتية بقدر ما يستجيب لإطار اجتماعي يملئ على الذات مقدمات اعتقاداتها. إننا حين نعلن عن معنى ما، نعلن في الحقيقة عن انتماء ثقافي، وسياسي، وأيديولوجي .. قرر فينا هذا القدر من المعنى دون غيره.

3. Il n'est pas nécessaire de percevoir le support du sens pour capter ce dernier.

إنها حقيقة أخرى قد تغاضت عنها اللسانيات التقليدية، حين أوقفت اهتمامها عند حدود اللغة وحدها. لأننا ونحن نقرأ نصا نتجاوز الحاجز اللغوي لنطل على المشهد الذي تحمله اللغة. فاللغة تتراجع إلى الخلف فاسحة المجال أمام المشهد الذي يعرضه الكلام. ولا يزعم قارئ أنه يتابع اللغة وحدها، وأن اللغة هي التي تعرض عليه المعنى. بل ينبثق المعنى ويرتفع ليحجب اللغة. ذلك هو قول المنظر حين يقول أنه ليس ضروريا أن نعاين الحامل للإمساك بالمعنى. لأن ما يقفز إلى الذهن هو المحمول أولا.

4. Nous oublions le support alors que le sens demeure en mémoire.

اللسانيات التداولية والترجمة

وحقيقة ما أشرنا إليه سابقا تتجلى حين نسأل قارئاً عن نص قرأه منذ زمن، فلا يذكر لنا إلا المعنى الذي ارتسم في الذاكرة. أما الحامل الذي عرض عليه ذلك المعنى فلا وجود له في ذاكرته. إنه الأمر الذي يفرض علينا أن نعيد النظر في اللغة ذاتها. إن كونها حاملاً يجعل الاستعمال فيها أكثر حضوراً من اعتبارها كياناً قائماً بذاته، منفصلاً عن الذوات المتكلمة. بل اللغة ذلك الاستعمال الذي تسعى القواعد لتفصيل أساليبه وحسب.

5. Le sens est composé à la fois du sens intenté et du sens reçu.

بيد أن هناك حقيقة أخرى، لابد لدارس الخطاب أن فقهها جيداً. إن المتكلم يسعى عبر كلامه إلى الإفصاح عن فكرة يعانيتها، فيختار لها من الكلام ما يراه لبوساً وافياً يؤدي حقها. والفكرة في النفس غير الفكرة في الكلام، قد تتخونها اللغة فلا تؤديها على الوجه الحسن، وقد تصرفها عن قصد ما بسبب التشويش الحاصل من التثرثرة والحشو. ذلك هو قصد المنظر حين يشير إلى المعنى المقصود "sens intenté". أما المعنى الذي تم التقاطه فهو مرهون بالفهم والمخالطة النفسية لذات المتلقي. ومن ثم يكون المعنى الكلي هو ناتج تلاقي الاثنين معاً. وكأننا أمام معنيين على أقل تقدير: المعنى المراد، والمعنى الملتقط، وبينهما من الفروق ما يجعل عملية التواصل قائمة على الاعتقاد. إنه الشرط الذي أضافه الأصوليون لعملية التواصل.

6. Nous ne traduisons que le sens, jamais ce que l'auteur aurait voulu dire ou l'effet qu'il aurait voulu avoir sur son auditoire...

حبيب مونسى

إن الشرط الخامس يحتم علينا أن نبصر في المعنى أبعادا أخرى غير التي عرضت حتى الآن. لأننا حين نقبل على كشف المعنى أو ترجمته، لا يتسنى لنا أبدا إدراك المعنى الأولي الذي خامر المتكلم وأراد التعبير عنه. وليس بين أيدينا سوى الكلام الذي ألبسه المتكلم لبوسا لفكرته. وهو حاصل لا نعلم عنه استقائه للمراد أو انتقاصه. فما أراده المتكلم أولا بعد غيبي، وكذلك الشأن بالنسبة لما انتظره من ردود أفعال في المتلقي. لأننا قد نعاين في قول أراد صاحبه أن يستثير غضبنا غير أنه لم يحدث من ذلك شيئا. لأنه أسسه على اعتقاد لا توجد فينا أسبابه. فالمعنى -أخيرا- هو ذلك الموضوع النفسي الذي وجدته الذات حين تلقيها القول.

7. Le sens n'est pas un élément distinct comme une idée ou un contenu mais bien le résultat d'un processus. On inclue les effets prosodiques, les affects véhiculées dans le discours, etc. Bref, c'est à la fois le contenu et la forme.

أخيرا ليس المعنى عنصرا منفصلا شأن الفكرة والمضمون، بل هو حاصل سياق تتقاطع فيها آثار شتى يجلبها الخطاب في تياره المتواصل. تلك الحركة التي تعيد تعيين المعنى على أنه الشكل الذي يرد فيه الكلام، والمضمون الذي يحمله في آن. فإذا ميزنا بين الشكل و المضمون أفقدنا المعنى جميع أبعاده الأساسية التي تكونه.

7-فعل الكلام عند الأصوليين:

أما إذا كان البحث عن كليات، تأتي الخبر وفهم القصد المترتب عليه، الشاغل الأول عند علماء الأصول. ذلك أن اهتدائهم بالنص الشرعي ينصرف أولا إلى المعنى المتضمن فيه أمرا أو نهيا، ترغيبا أو ترهيبا. ومنه كان من عادتهم:»

اللسانيات التداولية والترجمة

التعرض لمباحث اللغات في كتبهم. وذلك لأن هذه المباحث هي كالمدخل إلى أصول الفقه، من جهة أنه أحد مفردات مادته وهي الكلام والعربية، وتصور الأحكام الشرعية.»⁽²²⁾ وإذا توقفنا قليلا عند عبارة المؤلف، ألفينا وعيا مبكرا بأطراف المشكلة التواصلية كما عرضتها التداولية. فالكلام هو الطرف المنجز من اللغة الذي يجريه الاستعمال. أما العربية فهي اللغة في صورتها التي تقابل الكلام بما تتضمنه من قواعد. غير أن الشرط الأخير الذي يقوم على التصور فمرهون بالتلقي حين يكون الفهم ضربا من التصور تتشبه الذات في تعاملها مع المعنى. ألم تحدد التداولية المعنى بأنه موضوع سيكولوجي، أي تصورا قائما في الذات للموضوع الملفوظ. تلك هي الحقيقة الأولى التي يمكن الاستناد إليها في تصور مباحث علم الأصول اللغوية على أنها الفتح الأول في مجال استكشاف طرق الكلام وتلقيه في آن؟.

وإذا تأملنا فلسفة التعامل اللغوي عند علماء الأصول، أمكننا استنتاج رؤية متقدمة لما أنتجته الفلسفة اللغوية عند أمثال الفيلسوف الأمريكي موريس C. Morris، والانكليزي أوستين J.I. Austin، والفرنسي دوكرو O. Ducrot. في انصباب الاهتمام على فرعين متصلين بأفعال الكلام: ماهيته، وكيفيته. بيد أن الماهية والكيفية لا يتحققان إلا من خلال الدلالة الوضعية. لذلك نجد الرازي يقول: «اعلم أن البحث إما أن يقع عن ماهية الكلام أو عن كيفية دلالاته. ولما كانت دلالاته وضعية، فالبحث إما أن يقع عن الواضع، أو عن الموضوع أو عن الموضوع له، أو عن الطريق الذي به يعرف الوضع.»⁽²³⁾ وكأن التوزيع الذي تسلكه التداولية العربية القديمة يضع في اعتباره أربعة شعب:

- 1-الوضع (دلالة الكلمات).
 - 2-الموضوع (دلالة الخطاب، الكلام).
 - 3-الموضوع له (المتلقي).
 - 4-الطريق الذي به يعرف الوضع (قواعد الاستعمال وطرائقه).
- وهي الشعب التي تنتظم فعل الكلام في جملته، حين يحيط البحث بالدلالة في الألفاظ، وبالقواعد المستعملة في إنتاجه، وبالمفوض الذي يرفد الخطاب، وبالمتلقي الذي يفترض فيه قابلية إدراكه. وهي الفلسفة اللغوية التي لا تعطي الأولوية للغة في شكلها العام، بقدر ما تنصرف إلى الاستعمال الذي يكتنفه السياق المحدد نفسيا واجتماعيا. لأن مدار البيان كما يقول أبي بكر الصيرفي: «إخراج الشيء من حيز الإشكال إلى حيز التجلي»⁽²⁴⁾ وهو تعبير آخر عن الجهد المذول من طرف المتكلم في تعيين المقاصد التي يتوخاها في كلامه. إذ البيان أخير ليس مجرد إفهام وتفهم بقدر ما يكون ابتغاء لسلوك مترتب عليه، ينشأ من الاعتقاد فعلا نزوعيا إلى غاية.

هوامش

¹-F.SAUSSURE. COURS DE LINGUISTIQUE GÉNÉRALE. P.30.éd.cr. tullio de mauro. Paris.Payot.1972.

²-IBID.P:31.

³-IBID.P.38.

⁴-ROLAND ELUARD. La pragmatique linguistique. P:10.ed. Fernand Nathan.1985. Paris.

⁵-F.SAUSSURE. C.L.G. P:37.

- ⁶-ibid.p.31.
- ⁷- ROLAND ELUARD.p.13.
- ⁸-ibid.p.31.
- ⁹- J.STAROBINSKI, Les mots sous les mots. Les anagrammes de F.de Saussure. p:14.PARIS.Gallimard 1971.
- ¹⁰-E.BENVENISTE. problèmes de linguistique générale..p:81.Paris.Gallimard. 1974.
- ¹¹- ROLAND ELUARD. op cit.p.34.
- ¹²- BENVENISTE.op cit.p:80.
- ¹³- ROLAND ELUARD. op cit.p.34.
- ¹⁴- BENVENISTE. op cit .p:80.
- ¹⁵- ROLAND ELUARD. op cit.p.39.
- ¹⁶- P. CHARAUDEAU .éléments de sémiolinguistique.p:16. Hqchette.1980. Paris.
- ¹⁷- P. CHARAUDEAU. P:16.
- ¹⁸- P. CHARAUDEAU. P:19.
- ¹⁹- P. CHARAUDEAU. P:20.
- ²⁰- P. CHARAUDEAU. P:24.
- ²¹- Danielle-Claude Bélanger. Résumé de lecture. Texto.com sur le livre de GARCIA-LANDA, Mariano, "La théorie du sens», théorie de la traduction et base de son enseignement" in DELISLE, Jean, réd., L'enseignement de l'interprétation et de la traduction : de la théorie à la pédagogie, Cahiers de traductologie no 4, éditions de l'Université d'Ottawa, Canada, 1981, 296 p, pp.123-129.
- ²² -عبد القادر بن بدران الدمشقي. المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل. ج: 1 ص: 170(ت) عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة. ط1. 1401. 2.
- ²³ -محمد بن عمر بن الحسين الرازي. المحصول في علم أصول الفقه. ج: 1 ص: 233 (تح) طه جابر فياض العلواني. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ط1. 1400. الرياض.

حبيب مونسى

²⁴ - محمد بن محمد بن محمد الغزالي، أبو حامد. كتاب المنحول. ص: 63. (تج) محمد حسن هيتو. ط2. دار الفكر. 1400. دمشق.